الباب الثاني

مظاهر الوسطيّة في الإسلام

الفصل الأول
الوسطية في العقائد

قال تعالى " *وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاس وَيَكُون الرَّسُول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا* " (البقرة /١٤٣).

قال ابن جرير الطبري (ت سنة ٣١٠ هـ) رحمه الله تعالى.

" وأرى أنَّ الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا غلو فيه، غلو أهل النصارى الذين غلو بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدَّلوا كتاب الله، وقتلوا أنبيائهم، وكذبوا علي ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذا كان أحب الأمور إلى الله أوسطها "[1].

قال عبد الرحمن السعدي [2] (ت سنة ١٣٧٦ هـ) رحمه الله تعالى.

"والله عزَّ وجل جعل هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدنيا، وسطاً في الأنبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفا منهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كل على الوجه اللائق بذلك.

ووسطاً في الشريعة لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى، وفي باب الطهارة، والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وحُرِّمت عليهم الطيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً، ولا يحرمون شيئاً بل أباحوا ما دب ودرج، بل طهارتهم أكمل طهارة،

---

(١) مجمع البيان (١٤٢/٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٩١٥٨/١) ط. مؤسسة الرسالة. بيروت لبنان ط: أولي.

وأتمها وأباح لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرمت عليهم الخبائث من ذلك.

فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها، ورهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا أمة وسطاً، كاملين معتدلين ليكونوا شهداء على الناس بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم ".ا.هـ.

قال سيد قطب [1] (ت سنة ١٣٨٦هـ) رحمه الله تعالى.

"وكذلك هذه الأُمَّة أمة وسط في التصور والاعتقاد...أمةً وسطاً في التفكير والشعور، لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة، ولا نتبع ـ كذلك ـ كل ناعق....

إنما نتمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول، ثم ننظر في كل نتاج للفكر والتجريب، وشعارهم الدائم: الحقيقة ضالة المؤمن أني وجدها أخذها في تثبت ويقين.

أمة وسط في التنظيم والتنسيق...لا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب، وتزاوج بين هذه وتلك، فلا تكل الناس إلى سوط السلطان، ولا تكلهم ـ كذلك ـ إلى وحى الوجدان، ولكن مزاج من هذا وذاك ". ا. هـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [2] (ت سنة ٧٢٨ هـ) رحمه الله تعالى.

" وكذلك أهل السنة في الإسلام متوسطون في جميع الأمور فهم على وسط بين الخوارج والروافض، وكذلك عثمان وسط بين المراونية والزيدية وكذلك في سائر الصحابة وسط بين الغلاة فيهم والطاعنين عليهم، وهم في الوعيد وسط بين الخوارج

---

(١) في ظلال القرآن (١/١٣١) باختصار.

(٢) منهاج السنة النبوية (٥/١٦٨-١٧٣).

والمعتزلة وبين المرجئة، وهم في القدر وسط بين القدرية المجبرة من الجهمية ونحوهم، وهم في المعتزلة وسط بين المعطلة وبين الممثلة "

والمقصود أنَّ كل طائفة سوى أهل السنة والحديث المتبعين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا ينفردون عن سائر طوائف الأمة إلا بقول فاسد، لا ينفردون قط بقول صحيح، وكل من كان من السنة أبعد كان إنفراده بالأقوال والأفعال الباطلة أكثر.ا.هـ

ودين الإسلام هو دين الحنيفية السمحاء، ودين الوسطيَّة فمن تأمل أحكام الشريعة الإسلامية استطاع أن يدرك هذا الأمر، والعقيدة الإسلاميَّة عقيدة سهلة وبسيطة وأما التكاليف فهي ميسرة جداً ولنضرب على ذلك أمثلة:.

قال تعال " يا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا " (النساء /١٧١).

قال ابن كثير [1] (ت سنة ٧٧٤ هـ) رحمه الله تعالى:

ينهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء وهذا كثير في النصارى فأنهم تجاوزا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاها الله إياه فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدون الله بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه كان سواء كان حقا أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً أو صحيحاً أو كذباً ولهذا قال:

الله تعالى " *اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ* " (التوبة /٣١).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٥٨٨).

وفي الحديث الذي رواه البخاري وأحمد[1] في المسند عن ابن عباس سمع عمر ﷺ يقول علَّى المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول :" لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله ".

وروي أبو داود [2] عن أبي نضرة عن مطرف قال أبي: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا فقال " السيد الله تبارك وتعالى " قلنا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً فقال " قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان ".

قال الشيخ مُحَمَّد المدني[3] (ت سنة ١٣٨٨ هـ) رحمه الله تعالى.

" إنَّ العقيدة الإسلامية في الله عز وجل قائمة على وصفه تعالى بكل جميل، وتنزيهه عن كل قبيح، وقد أمرنا أن نفكر في آثار الله ولم نؤمر . بل نهينا . أن نفكر في ذات الله، لأن آثار الله في الخلق والإيجاد والتصرف واضحة يمكن أن نراها بعقولنا كما نراها بعيوننا وأن نسبح فيها السبح الطويل دون أن نخشى ضلالاً أو نخاف تيهاً، وأما ذات الله فهي فوق العقول التي ألفت التقدير والتكييف، والتحديد والقياس، والتشبيه، هذه العقيدة في جانب الألوهية كافية الإيمان وإن امرأ لقي ربه وهو يعلم أنَّه إله قادر

---

(١) رواه البخاري (٤٧٨/٦)، وأخرجه الدرامي في الرقاق (٣٢٠/٢)، وأخرجه أحمد في المسند (٤٧/١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٤/٥) وقال هذا حديث صحيح رجاله كلهم ثقات ورواه أحمد في المسند (٢٥/٤).

وفي رواية أخري تفرد بها أحمد عن حماد عن حميد عن أنس (٢٤٩/٣) انه ﷺ قال " أنا مُحَمَّد عبد الله ورسوله أنا مُحَمَّد عبد الله ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل ".

(٣) مرجع سابق (٢٧-٢٨) بتصرف.

متصف بجميع صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقص دون أن يعلم ما وراء ذلك من تفصيل في شأن الصفات لكان إيمانه عند الله مقبولاً.

وقد ركب متن الشطط قوم حاولوا أن يخوضوا بعقولهم في هذا المجال، كأنهم حسبوا أنهم قادرون عل إدراك ذات الله وكنهه، فعقدوا ما شاءوا بين الذات والصفات من نسب واختلفوا في أن الثانية هي عين الأولى أو غيرها وفي أنَّها قائمة أو مستقلة عنها، وفي أنها قديمة بقدمها أو كقدمها، إلى غير ذلك من الظنون والفروض التي شغلوا بها أنفسهم وشغلوا بها الناس وفتحوا بها على العقول أبواب الشكوك والفتن، وهم في ذلك إن لم يشبهوا فقد قاربوا وقالوا على الله بغير علم كما زعم الذين قالوا: اتخذ الله ولداً، أو الذين قالوا: الملائكة بنات الله، فالكل ينسب إلى الله ما لم يأذن به الله، ويحاول أن يتصور الإلوهية تصوراً مادياً، مع أن حقيقة النفس الإنسانية والروح البشرية لم تدرك ولم يعلم على وجه يصح ما هي ولا كيف هي!

كما ركب متن الشطط قوم تناسوا الله وخلقه وتصريفه وقدرته فزعموا أنَّ هذه الدنيا وليدة المصادفات أو التفاعلات، كذلك وجدت وكذلك ستظل حتى يصادفها الفساد، ويدركها نوع من الخلل في النسب والمقاييس.

اشتط هؤلاء وهؤلاء ووقف كل منهما في جانب الألوهيَّة على طرف مناقض: قوم يؤمنون بالإله ولكنهم يقحمون عقولهم فيما ليس لها طاقة به من معرفة كنهه وحقيقته، وقوم يفكرون به وينكرونه وتعمي قلوبهم عن آياته وآثاره، والقرآن الكريم ينادي أولئك وهؤلاء أن الهدي غير ما تزعمون.

قال تعالى " *وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ* "

(الأنعام /١٥٣).

الدعوة إلى التفكير في آثار الله تعالى:

يقول الله عزَّ وجل في حض العباد على التفكير في خلقه وآثاره وما له من تصريف وتدبير.

" *إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ* "(آل عمران /١٩٠).

" *قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ* " (يونس /١٠١).

" *فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ* " (العنكبوت /٢٠).

" *انظُرُواْ إِلِى ثَمرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ* " (الأنعام /٩٩).

" فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا " (الروم /٥٠).

" *قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا* " (الأنعام /١١).

" *وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُون* " (الذاريات /٢١).

ويقول الله عز وجل في وصفه نفسه، وإعلام المخلوقين بأنَّه فوق ما يعقلون أو يدركون.

" *وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ* " (الأنعام /١٨).

" *لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ* " (الشورى /١١).

" وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ " (الأنعام /١٠٠-١٠٣).

فالقرآن الكريم لم يأت لنا أبداً بشيء يفصح عن ذات الله تعالى من حيث الحقيقة ولكنه، يلفت دائماً إلى آثار الله في الخلق والتصريف.